أثر علماء العربية القدماء في الدرس اللساني الحديث

The impact of ancient Arab scholars In the modern linguistic lesson

أ.م.د.حيدر عبد علي حميدي

Ass. Prof. Dr. Haider Abed Ali Hamidi

كلية التربية للعلوم الإنسانية/جامعة كربلاءقسم اللغة العربية

College of Education for Human Sciences/University of Karbala /the department of Arabic language

الكلمات المفتاحية : أثر، القدماء، الدرس، اللساني، الحديث.

Keywords: effect ،the ancients ،the lesson، lingual ،modern

الملخص :

يسعى هذا البحثُ إلى الوقوفِ على أثرِ علماءِ العربيةِ القدماءِ في الدرسِ اللسانيّ الحديثِ، و بيانِ أنّ أغلبَ ما توصلوا إليه في مستوياتِ اللغةِ المختلفةِ يمكنُ أن ينطبقَ على لغاتِ البشرِ جميعِها، من دون أن يختصُّ باللغةِ العربيةِ وحدَها ؛ إذ هم درسوا اللغةَ من منطلقِ كونِها ظاهرةً إنسانيةً انمازَ بها الإنسانُ من غيرِه من الكائناتِ الحيّةِ، لذلك انظبقتْ أغلبُ دراساتِهم على اللغاتِ البشريةِ عامّةً.

Abstract:

This research aims to stand on the impact of the ancient Arabic scholars in the modern linguistic lesson ،And a statement that most of what they have reached the different levels of language can be applied to all human languages ،And it is not specific to the Arabic language alone; They studied language as a human phenomenon that distinguishes man from other living creatures. Therefore ،most of their studies focused on human languages in general.

<u>– اللغة، تعريفُها، و نشأتُها :</u>

ذكرَ علماءُ العربيةِ القدماءُ تعريفاتٍ للغةِ، و لم تكنْ مقتصرةً على اللغةِ العربيةِ، و إنّما يُفهمُ منها أنّها شملتْ اللغةَ الانسانيةَ بكلِّ أقوامِها، و سنختزلُ مقولاتِهم في هذا الموطنِ مكتفينَ بتعريفينِ اثنينِ لعالمينِ جليلينِ هما : الجاحظُ (255هـ)، و ابنُ جني (392هـ) ؛ و ذلك لأنّا ألفيناهما قد تفطّنا قبلَ قرونٍ متطاولةٍ لظواهرَ قررتها الدراساتُ اللسانيةُ الحديثةُ.

يقولُ الجاحظُ في تعريفِه للغةِ، التي أطلقَ عليها اسمَ (البيانِ) : " و البيانُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كشفَ لكَ قِناعَ المعنى، وهتكَ الحجابَ دونَ الضميرِ، حتّى يُفضي السامعُ إلى حقيقتِه، و يهجمَ على محصولِه كائنًا ما كانَ ذلكَ البيانُ، و من أي جنسٍ كانَ الدليلُ ؛ لأنّ مدارَ الأمرِ و الغايةَ التي إليها يجري القائلُ و السامعُ، إنّما هو الفهمُ و الإفهامُ؛ فبأي شيءٍ بلغتَ الإفهامَ و أوضحتَ عن المعنى، فذلك هو البيانُ في ذلك الموضعِ " [1].
ونستقي مما دونَه الجاحظُ أنّه وضعَ اليدَ على أمرينِ غايةً في لأهميةِ هما: الجانبُ النفسي، والجانبُ الاجتماعيّ للغةِ الانسانيةِ.

فالجانبُ النفسيُّ متمثّلٌ بوجودِ فكرةٍ مركوزةٍ في ذهنِ المتكلّمِ يريدُ أن ينقلَها إلى المتلقي، و من ثمَّ يختارُ المتكلمُ وسيلةً من وسائلِ البيانِ: و هي إمّا لفظٌ أو خطٌّ أو إشارةٌ أو عقدٌ أو حالٌ [2]؛ من أجلِ الوصولِ إلى إفهامِ السامعِ، و كشفِ قناعِ المعنى له.

و قد أكدَ الدرسُ اللسانيُّ الحديثُ ارتباطَ الجانبِ النفسي بعمليةِ التواصلِ، إذ يرى ماريوباي أنَّ " عمليةَ الكلامِ – إذن– تتكونُ من جانبينِ عضويّ و نفسيٍّ، و حركةُ الكلامِ تبدأُ من الرباطِ النفسيّ، أو العقليّ الذي سبقَ الاتفاقُ عليه في عقولِ المتكلمينَ بينَ دلالةٍ معينةٍ و مجموعةٍ من الأصواتِ ترمزُ إليها" [3].

و في هذا السياقِ يقولُ فندريس : "إنَّ اللغةَ تنشبُ جذورُها في أقصى أعماقِ الشعورِ الفرديّ، و من هنا تستمدُّ قوّتَها لتتفتّحَ على شفاه بني الانسانِ " [4].

أمّا الجانبُ الاجتماعيُّ فمفهومٌ من تعريفِ الجاحظِ للغةِ، بيدَ أنّه أكثر وضوحًا و جلاءً في تعريفِ ابنِ جني الذي يقولُ فيه : "أمّا حدُّها فإنّها أصواتٌ يعبرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضِهم " [5] .

ونلحظُ في هذا التعريفِ أنَّ ابنَ جني لم يقتصرْ في تعريفِه على اللغةِ العربيةِ فحسب، و إنّما شملَ تعريفُه اللغةَ الانسانيةَ عامّةً.

فاللغةُ بحسبِ هذا التعريفِ هي:

1– أصواتٌ

2– ظاهرةٌ اجتماعيةٌ

3– لها وظيفةٌ

وهذا قوامُ اللغاتِ جميعِها من دونِ استثناءٍ، و هو ما ركنت إليه (مدرسةُ علمِ الاجتماعِ الفرنسيةُ)، والتي من أشهرِ علمائِها (رولان بارت)، إذ ذهبَتْ هذه المدرسةُ إلى أنّ اللغةَ إنّما هي نظامٌ أو نسقٌ اجتماعيٌّ وثقافيٌّ لا يرتبطُ وجودُه بوجودِ الفردِ، بل إنّ الفردَ هو الذي يدخلُ في هذا النسقِ من ولادتِه، و يتربّى عليه[6] .

وصفوةُ القولِ في ذلكَ أنَّ تعريفَ اللغةِ عندَ علمائِنا القدماءِ، كانَ له حضورٌ واضحٌ في الدرسِ اللساني الحديثِ.

أمّا ما يخصُّ نشأةَ اللغةِ فقد بحثَ ابنُ جني هذا الموضوعَ، و ذكرَ ثلاثةَ آراءٍ فيه، هي :

1– إلهامٌ من عندِ اللهِ سبحانَه و تعالى.

2– تواضعٌ واصطلاحٌ من البشرِ.

3– تقليدُ أصواتِ المسموعاتِ

والذي يتبدّى مما سبقَ آنفًا أنَّ ابنَ جني لم يقصدْ اللغةَ العربيةَ بنفسِها في هذه المذاهبِ أو الآراءِ، وإنّما كانَ كلامُه يدورُ في فلكِ نشأةِ اللغةِ الإنسانيةِ قاطبةً.

ولم يكنْ ابنُ جني بدعًا من أربابِ اللغةِ فقد شاركَهُ في الكلامِ على أصلِ نشأةِ اللغةِ الإنسانيةِ آخرونَ في هذا الأمرِ، منهم أحمدُ ابنُ فارس(395هـ) [7] .

وظلَّ هذا الموضوعَ مثارَ جدلٍ بين العلماءِ قديمًا، إلى أن آلَ بنا الحالُ إلى العصرِ الحديثِ لنرى الآراءَ نفسَها التي قالَ بها علماؤنا القدماءُ في هذا الموضوعِ قد تكررتْ على لسانِ المحدثينَ من العربِ و الغربيينَ، وهي على النحوِ الآتي [8] :

1– ذهبَ (الأب لامي)، والفيلسوف (دوبونالد) إلى أنَّ اللغةَ إلهامٌ إلهي هبطَ على الانسانِ، فعلّمهُ النطقَ وأسماءَ الأشياءِ.

2- يرى الفيلسوف الانكليزي آدم سميث، و ريد، و دجلد ستيوارت أنَّ اللغةَ حصلت بالتواضعِ، والاتفاقِ، وارتجالِ ألفاظِها ارتجالًا.

3- يرى العلامةُ الألماني مكس مولر، و العلّامةُ الفرنسيُّ رينان أنَّ اللغةَ نشأتْ من طريقِ غريزةٍ خاصّةٍ زُوّدَ بها في الأصلِ جميعُ أفرادِ النوعِ الانساني ؛ للتعبيرِ عن مدركاتِه بأصواتٍ مركّبةٍ ذاتِ مقاطعَ.

4- ذهبَ العلّامةُ وتني إلى أنّ اللغةَ نشأتْ من محاكاةِ أصواتِ الطبيعةِ المحيطةِ بالإنسانِ.

وما يعنينا في هذا المقامِ هو أثرُ علماءُ العربيةِ القدماءُ في طرحِ هذه الفكرةِ (فكرةَ نشأةِ اللغةِ) في ساحةِ البحثِ اللسانيِّ العامّ، و تكرارُ الفكرةِ نفسِها لدى المحدثينَ ينبئُ عن أنَّ جهدَ القدماءِ كانَ جهدًا لسانيًّا عامًّا لا يختصُّ بالعربيةِ وحدَها.

- الصوت، أعضاؤه، و كيفية حدوثه :

جعلَ الخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيدي(170هـ) أصواتَ العربيةِ في مجموعاتٍ، وأطلقَ على كلِّ مجموعةٍ منها اسمًا، نسبَه إلى المخرجِ الذي تخرجُ منها حروفُ هذه المجموعةِ، وهي : حلقيةٌ، ولهويةٌ، وشجريةٌ، وأسليةٌ، ونطعيةٌ، و لِثويةٌ، و ذلقيةٌ، و شفويةٌ، و هوائيةٌ [9]، و تابعَهُ بعدَه علماءُ العربيةِ، مع اختلافٍ في عددِ هذه المخارجِ زيادةً و نقصانًا [10].

والذي يهمُنا من هذا الكلامِ، تقسيمُ الخليلِ الجهازَ النطقيّ على تسعةِ مُخارجَ تخرجُ منها الأصواتُ.

ويبدو من صنيعِ الخليلِ أنّه لم يتركْ جزءًا من أجزاءِ مواضعِ النطقِ – ابتداءً من خروجِ النفَسِ من الرئتينِ، انتهاءً إلى الشفتينِ – إلا ووسمَهُ باسمٍ معيّنٍ. والخليلُ بإجرائِه هذا لم يقتصرْ على مواضعِ النطقِ لمتكلمِ العربيةِ فحسب، وإنما يدخلُ في صنيعِهِ كلُّ بني البشرِ _ وإن لم يكن قاصدًا ذلك ؛ ولعلَّ مردَّ ذلك إلى " أنَّ الخليلَ و من تقيّلَهُ من تلاميذِه، و لاحقيه عرفوا أعضاءَ الجهازِ النطقي استمدادًا من معارفِهم اللغويةِ فيما دُعِيَ بـ (خلقِ الانسانِ)"[11]، فأعضاءُ النطقِ و مواضعُها واحدةٌ عندَ بني البشرِ كافّةً، فحروفُ أيّ لغةٍ يمكنُنا أن نوزّعَها في ضوءِ هذه المجموعاتِ الصوتيةِ التي ذكرَها الخليلُ؛ فكلُّ حرفٍ له مخرجٌ معينٌ يقعُ ضمنَ هذه المخارجِ، وهذا العملُ يقعُ ضمنَ **(الدرسِ اللساني العامّ)**؛ إذ ينطبقُ على كلِّ لغاتِ البشرِ؛ إذ أعضاءُ النطقِ لدى البشرِ لا تختلفُ من لغةٍ إلى أخرى.

و إذا ما راقبْنا الدرسَ الغربي و ما يراهُ في هذا الأمرِ نجده لا يختلفُ عمّا ذكرَه الخليلُ في هذا الميدانِ، ما عدا اختلافَ بعضِ التسمياتِ والمصطلحاتِ، ولعلَّ الباعثَ من وراءِ ذلك هو التطورُ الذي حصلَ في العصرِ الحديثِ، وما دخلَ من تقنياتٍ حديثةٍ ومتطورةٍ في الدرسِ الصوتي الحديثِ، من مختبراتٍ وأجهزةٍ لم تكنْ متاحةً في عصرِ القدماءِ.

يقول (دي سوسور): إنّ الجهازَ النطقي ينقسمُ على ثلاثةِ أقسامٍ رئيسةٍ هي[12]:

1- تجويفُ الأنفِ

2- تجويفُ الفمِ

3- الحَنجَرةُ

ثمَّ يفصّلُ الحديثَ على هذه الاقسامِ الثلاثةِ بقولِه : الفمُ يشملُ الشفتينِ، واللسانَ، والآسنانَ العليا، والحنكَ، واللهاةَ، والحَنجرةُ تشملُ فتحةَ لسانِ المزمارِ، أمّا التجويفُ الأنفي فليسَ له وظيفةٌ نطقيةٌ سوى إحداث رنينٍ للذبذباتِ الصوتيةِ التي تمرُّ فيه، فهو ليس من أعضاءِ إنتاجِ الصوتِ [13] .

و يقول (برتيبل مالمبرج) : إنّ جهازَ النطقِ الانساني ينقسمُ على ثلاثةِ أقسامٍ هي[14] :

1- الجهازُ التنفسي الذي يقدّمُ الهواءَ اللازمَ لإنتاجِ الصوتِ.

2- الحَنجرةُ التي تُنشئُ الطاقةَ المصوتةَ.

3- التجاويفُ فوقَ المزماريةِ، وهي غرفُ الرنينِ الأنفيةُ والفمويةُ.

فملاكُ الأمرِ في الدرسِ اللساني الحديثِ ينبني على أساسِ " أنّ الصوتَ اللغوي ينتجُ عن أربعِ عملياتٍ منفصلةٍ، هي: عمليةُ تيارِ الهواءِ التي ترتبطُ بالرأتينِ، وعمليةُ التصويتِ التي ترتبطُ بالحَنجرَةِ، وبخاصّةٍ بالوترينِ الصوتيينِ فيها؛ والعمليةُ الرنينيةُ، أوعمليةُ حجراتِ الرنينِ، التي ترتبطُ بفجواتِ الأنفِ والفمِ؛ والعمليةُ النطقيةُ التي ترتبطُ خاصّةً باللسانِ و الشفتينِ " [15] .

وعبرَ معطياتِ ما سبقَ آنفًا نُدركُ أنَ الدرسَ الصوتي الحديثَ عبّرَ عن منطقةِ (الحلقِ) عندَ الخليلِ بـ (الحَنجرةِ)، ومنطقةِ (اللهاةِ، والشجْرِ، والنطعِ، والذلقِ، والأسلِ، واللِثةِ، والشفةِ، والهواءِ) بـ (الفمِ)، وكأنَّ هناكَ اتفاقًا بين الخليلِ وعلماءِ اللغةِ المحدثينَ في تقسيماتِ الجهازِ النطقي، مع اختلافِ الاسماءِ أحيانًا[16].

نفهمُ من ذلك أنَّ تقسيمَ المحدثينَ لأعضاءِ النطقِ يدنو كثيرًا من عملِ الخليلِ وعلماءِ التجويدِ عندما قسّموا المخارجَ و رتّبوها على حسبِ أقسامِ آلةِ النطقِ، فمخارجُ الأصواتِ في آلةِ النطقِ متّفقٌ عليها عندَ كلِّ بني البشرِ.

ومما يدلُّ على إفادةِ الدرسِ اللساني الحديثِ ممّا قدّمَه علماءُ العربيةِ القدماءُ في هذا المجالِ رأيُهم فيما توصّلَ إليه القدماءُ في علمِ الأصواتِ،إذ يقولُ (جان كانتينو) :"ونظريةُ مخارجِ الحروفِ عندَ النحاةِ العربِ نظريةٌ أحكموا ضبطَها"[17] .

ويقولُ المستشرقُ الألماني (ارتور شاده) : " لم يكنْ هناكَ في الشعوبِ القديمةِ إلا شعبانِ قد بحثا عن كيفيةِ الأصواتِ وانتاجِها بحثًا فاقَ بحثَ اليونان دقةً وعمقًا، وهما : الهندُ والعربُ " [18] .

وندركُ من ذلكَ " أنّ اعترافَ هؤلاءِ العلماءِ الغربيينَ بتفوقِ الدراساتِ الصوتيةِ عندَ العربِ، وتصنيفاتِهم الجبارةِ في مجالِ الدراساتِ المعجميةِ لدليلٌ أكيدٌ على فعاليةِ هذا التراثِ و منهجيتِهِ" [19] .

ويطالعانُا أبو عثمان الجاحظُ (255هـ) بآرائِه اللسانيةِ في علمِ الأصواتِ، التي لم تكنْ – لقارئِها – مقتصرةً على اللغةِ العربيةِ فحسب، وإنّما شملتْ اللغاتِ الانسانيةَ جمعاءَ، فنراهُ يذكرُ أثرَ الاسنانِ واللحمِ المحيطِ بها في عمليةِ نطقِ الأصواتِ، إذ ينقلُ لنا عن سهلِ بنِ هارونَ قولَه : " لو عرفَ الزنجيُّ فرطَ حاجتِه إلى ثناياه في إقامةِ الحروفِ، و تكميلِ آلةِ البيانِ، لما نزعَ ثناياه"[20] . وكأنّ للزنوجِ عادةً اعتادوا عليها، هي قلعُ ثناياهم، كما يذكرها الجاحظ، فهم يقلعونها ظنًّا منهم أنَّ بقاءَها يجعلُهم يشبهونَ الأغنامَ [21] .

وذكرَ الجاحظُ قضيتينِ مهمتينِ في مجالِ علمِ الأصواتِ :

–القضيةُ الأولى: أثرُ التوازنِ بينَ أعضاءِ النطقِ في إنتاجِ الصوتِ، يقولُ في ذلك: " و قالَ محمدٌ بنُ عمْرو الروميّ، مولى أميرِ المؤمنينَ: قد صحّتْ التجربةُ وقامتْ العبرةُ على أنَّ سقوطَ جميعِ الأسنانِ أصلحُ في الابانةِ عن الحروفِ، منه إذا سقطَ أكثرُها، وخالفَ أحدُ شطريها الشطرَ الآخرَ " [22] .

فنطقُ الحروفِ يكونُ واضحًا في حالِ سقوطِ جميعِ الأسنانِ قياسًا بسقوطِ بعضِها، وبقاءِ بعضِها الآخرِ، أو قياسًا بسقوطِ أسنانِ أحدِ الفكّينِ، وبقاءِ أسنانِ الفكِّ الآخرِ. و يذكرُ الجاحظُ ما يؤيدُ كلامَه هذا بقولِه : " وقد ضربَ الذينَ زعموا أنَّ ذهابَ جميعِ الأسنانِ أصلحُ في الابانةِ عن الحروفِ من ذهابِ الشطرِ أو الثلثينِ، في ذلكَ مثلًا، فقالوا: الحمامُ المقصوصُ جناحاه جميعًا أجدرُ أنْ يطيرَ من الذي يكونُ جناحاه أحدُهما وافرًا والآخرُ مقصوصًا. قالوا: وعلّةُ ذلك التعديلُ والاستواءُ، وإذا لم يكنْ ذلك كذلك ارتفعَ أحدُ شِقّيهِ وانخفضَ الآخرُ، فلم يجدفْ ولم يطرْ " [23]

فسقوطُ بعضِ الاسنانِ يفضي إلى اختلالِ توازنِ الهواءِ الخارجِ من الرئتينِ في أثناءِ النطقِ ؛ لكونِ الأسنانِ من الحواجزِ التي تعيقُ تدفقَ الهواءِ الخارجِ من الرئتينِ لإنتاجِ الأصواتِ أو ولادتِها، فهي تشتركُ مع أعضاءٍ أُخرَ في انتاجِ الصوتِ[24].

ولعلَّ لبَّ ما توصّلَ إليه الدرسُ الصوتي الحديثُ " أنَّ الدردَ[*] الكلّي أخفُّ ضررًا على سلامةِ النطقِ من الدردِ الذي تسقطُ فيه معظمُ الأسنانِ لا كلُّها ؛ و السببُ في ذلك هو أنَّ الفمَ – عندَ سقوطِ جميعِ الأسنانِ – يطوّرُ عاداتٍ نطقيةٍ بصورةٍ أسرعَ مما هي عليه عندَ سقوطِ معظمِ الاسنانِ، كذلك فإنَّ اللسانَ يتخذُ أوضاعًا بأيسرَ مما يتخذُها عند سقوطِ معظمِ الأسنانِ، الأمرُ الذي يخفّفُ من النشازِ النطقيّ الذي يبدو في الحالةِ الأخيرةِ " [25] .

– أما القضيةُ الأخرى التي وعاها الجاحظُ وأحاطَ بها فهي التعويضُ العضويُّ في أعضاءِ النطقِ، فالأسنانُ إذا أصابَها خللٌ ما يمكنُ للسانِ أنْ يعوضَ عنها، ويسدَّ الخللَ، وفي معرضِ كلامِه على من سقطتْ أسنانُه وعوضَ عنها بلسانِه يقولُ : " وإذا وجدَ اللسانُ من جميعِ جهاتِه شيئًا يقرعُه ويصكُّه، و لم يمرَّ في هواءٍ واسعِ المجالِ، وكانَ لسانُه يملأُ جوبةَ فمِه، لم يضرَّه سقوطُ أسنانِه إلا بالمقدارِ المُغتَفرِ، والجزءِ المُحتَملِ " [26].

نفهمُ من هذا النصّ أنّه يمكنُ للسانِ أن يعوّضَ الخللَ الذي يحدثُ في الأسنانِ ويجعلُها قاصرةً عن أداءِ وظيفتِها في عمليةِ انتاجِ الصوتِ، إلا أنَّ هذا التعويضَ مشروطٌ بمقدارِ حجمِ اللسانِ ؛ إذ ليسَ كلُّ لسانٍ قادرًا على أنْ يعوّضَ خللَ الأسنانِ، فكلّما كانَ حجمُ اللسانِ أكبرَ كانتْ عمليةُ التعويضِ صالحةً و متحققةً، وهذا ما قررته الدراساتُ الصوتيةُ الحديثةُ التي نزعتْ إلى " أنَّ الدردَ (سقوطَ الأسنانَ) الجزئي أو الكلّي يؤدي إلى إخلالٍ في بنى العضلاتِ الخاصةِ بالتصويتِ. بل إنّه قد يؤدي إلى تغييرٍ في بنيةِ أعضاءٍ أخرى من أعضاءِ النطقِ، فيعلو اللسانُ، ويتمددُ الخدّانِ ؛ كي يقتربا ليعدلا فقدانَ الارتفاعِ الناجمِ عن سقوطِ الأسنانِ " [27] .

ومما يعينُ على إدراكِ أنَّ حجمَ اللسانِ له أثرٌ في التعويضِ عن خللِ الأسنانِ، أنَّ لسانَ الحيوانِ إذا كانَ حجمَه كبيرًا يمكنُ له أن ينطقَ الأصواتَ بوضوحٍ، وهذا ما تلقّفه الجاحظُ عن أرسطو طاليس، إذ يقولُ : " إنَّ

الطائرَ والسبعَ والبهيمةَ كلما كانَ لسانُ الواحدِ منها أعرضَ كانَ أفصحَ و أبينَ، و أحكى لما يُلقّنُ ولما يَسمعُ"[28].

إذن عمليةُ التعويضِ مرهونةٌ بحجمِ اللسانِ؛ كي يكونَ مؤهلًا للتعويضِ عن خللِ الأسنانِ، فكلما كانَ حجمُه أكبرَ كانتْ عمليةُ التعويضِ أثبتَ.

وينبّهُ الجاحظُ على أنَّ التشوهاتِ الخَلقيةَ التي تُصيبُ اللِثةَ تؤثّرُ في عمليةِ انتاجِ الصوتِ، إذ يقولُ: "وقالَ أهلُ التجربةِ : إذا كانَ في اللحمِ الذي فيه مغاوزُ الأسنانِ تشميرٌ و قِصرُ سَمْكٍ، ذهبتْ الحروفُ وفسدَ البيانُ " [29]، و قد أشارَ الامامُ الصادقُ (عليه السلام) من قبلُ إلى هذا المعنى في حديثِه مع المفضّلِ بنِ عمر الجعفي عن الصوتِ و آلاتِه في الانسانِ، إذ يقولُ : " ألا ترى أنَّ من سقطتْ أسنانُه لم يقمْ السينَ، ومن سقطتْ شفَتُه لم يصححْ الفاءَ، ومن ثقلَ لسانُه لم يُفصحْ الراءَ " [30] .

وما ذكرَه الامامُ الصادقُ(عليه السلام)، ومن بعدِه الجاحظُ، لا يخصُّ لغةً معيّنةً، وإنّما يشملُ لغاتِ البشرِ جميعَها، وأكّدَ هذا المعنى الدرسُ الصوتيُّ الحديثُ؛ إذ شدّدَ على " أنَّ أيَّ خللٍ عضويٍّ في أيّ جزءٍ من الجهازِ النطقي يؤدي إلى وقوعِ العيوبِ الكلاميةِ و النطقيةِ " [31] .

إذن ما ذكرَه القدماءُ يدخلُ في الجهدِ اللساني العامّ،و لا يقتصرُ على لغةٍ بعينِها.

وقد ألفينا ابنَ جني(392هـ) في أثناءِ رصدِه للصوتِ يقولُ: " اعلمْ أنَّ الصوتَ عرضٌ يخرجُ مع النفسِ مستطيلًا متّصلًا، حتى يعرضَ له في الحلقِ والفمِ والشفتينِ مقاطعُ تُثنيه عن امتدادِه واستطالتِه، فيُسمى المقطعُ أينما عرضَ له حرفًا " [32] .

يُبيّنُ ابنُ جني في هذا النصِّ المواضعَ التي يولَدُ فيها الصوتُ عامّةً، فهي ثلاثةُ مواضعَ:

1- الحلقُ و ما اشتملَ عليه من أقصى الحنكِ والحَنجرةِ و الفراغِ الذي بينهما[33]

2- الفم الذي يشملُ اللسانَ والحنكَ الأعلى واللهاةَ والأسنانَ [34] .

3- الشفتانِ.

ومما سقناهُ آنفًا نلحظُ أنَّ الدرسَ الصوتيَّ الحديثَ لم يختلفْ في تعريفِ (الصوتِ) عمّا دونَه ابنُ جني في وصفِه الصوتَ؛ إذ يقولُ عنه (برتيل مالمبرج): هو هواءُ الزفيرِ الذي يخرجُ من الرئتينِ ليمرَّ في أعضاءِ النطقِ، ابتداءً من الحنجرةِ و انتهاءً بالشفتينِ، ثمَّ ينتقلُ إلى الأذنِ عبرَ الهواءِ على شكلِ ذبذباتٍ[35]

هذه هي المواضعُ التي تولدُ فيها أصواتُ اللغاتِ عند البشرِ، ولا يوجدُ اختلافٌ بينهم فيها؛ إذ هي من صنعِ اللهِ تعالى، و إنْ كانَ ثمَّ اختلافٌ فهو في مقدارِ حجمِ هذه المواضعِ، مما يسببُ اختلافًا في جرْسِ الأصواتِ المنطوقةِ، فصوتُ الطفلِ يختلفُ عن صوتِ البالغِ، وصوتُ المرأةِ يختلفُ عن صوتِ الرجلِ؛ بسببِ اختلافٍ في حجمِ هذه الأعضاءِ [36] .

وقد ضمَّ الدرسُ الصوتيُّ الحديثُ إلى هذه المواضعِ موضعًا رابعًا، هو (التجويفُ الأنفيُّ) [37] ، ويبدو من كلامِ ابنِ جني أنّه ذكرَ المواضعَ التي تولدُ فيها الأصواتُ، هذه المواضعُ تعترضُ الهواءَ الخارجَ من الرئتينِ، ومكانُ الاعتراضِ في هذه المواضعِ هو مكانُ ولادةِ الصوتِ.على حينِ نجدُ أنَّ الموضعَ الرابعَ الذي ذكرَه

الدرسُ الصوتيُّ الحديثُ ليسَ موضعًا يعترضُ الهواءَ الخارجَ من الرئتينِ، وإنّما هو: " تجويفٌ يندفعُ الهواءُ من خلالِه عندما ينخفضُ الحنكُ اللينُ فيفتحَ الطريقَ أمامَ الهواءِ الخارجِ من الرئتينِ ليمرَّ من طريقِ الأنفِ، وهذه هي الحالُ عند النطقِ بالنونِ و الميمِ العربيتينِ" [38]، لذلك ليسَ للقناةِ الأنفيةِ وظيفةٌ سوى إحداث اهتزازاتٍ حينَ يمرّ الهواءُ في بعضِ الأصواتِ، ومن ثمَّ ليسَ لها أثرٌ في انتاجِ الصوتِ الانساني [39].

فبمقدورنا إذن جعلُ كلامِ ابنِ جني وصفًا عامًّا لمخارجِ الأصواتِ في اللغةِ الانسانيةِ، وليسَ وصفًا لمخارجِ أصواتِ العربيةِ فحسب.

ويحدّثُنا ابنُ سينا (428هـ) عن أهميةِ الصوتِ في حياةِ الانسانِ، إذ يقولُ : "ولمّا كانتْ الطبيعةُ الانسانيةُ محتاجةً إلى المحاورةِ لاضرارِها إلى المشاركةِ والمحاورةِ، انبعثتْ إلى اختراعِ شيءٍ يُتوصلُ به إلى ذلك... فمالتْ الطبيعةُ إلى استعمالِ الصوتِ، ووُفِّقتْ من عندِ الخالقِ بآلاتِ تقطيعِ الحروفِ و تركيبِها معًا ؛ ليُدَلَّ بها على ما في النفسِ من أثرٍ " [40] .

فابنُ سينا يبيّنُ في هذا النصّ فائدةَ الصوتِ بالنسبةِ إلى الإنسانِ عامّةً من دونِ أن يقصدَ قومًا معينينَ، فلم يقصدْ الانسانَ العربي فحسب، و إنّما كلامُه يسري على بني البشرِ جميعا؛ إذ نبّهَ على أنّ الصوتَ ما هو إلا نتاجُ الطبيعةِ الانسانيةِ التي تحتاجُ إلى تواصلِ البشرِ و تفاهمِهم فيما بينهم.

وتناغمت رؤى المحدثينَ في هذا السياقِ مع ما فطنَ له القدماءُ، يقولُ الدكتور رمضان عبد التواب: " إنَّ الانسانَ استخدمَ ذكاءَه على توالي الأيامِ والعصورِ، فاستطاعَ أنْ يُكيّفَ جهازَهُ الصوتيَّ في أوضاعٍ مختلفةٍ، مع اخراجِ الهواءِ من الرئتينِ، فأنتجَ بذلكَ أصواتًا مختلفةَ المخارجِ و الصفاتِ، يتألفُ منها كلامُه الانسانيُّ " [41].

ولم يكتفِ ابنُ سينا بالحديثِ عن أهميةِ الصوتِ في حياةِ الانسانِ، وإنّما ذهبَ إلى أبعدَ من ذلكَ حينما بدأ بالحديثِ عن سببِ حدوثِ الصوتِ، وتشريحِ أعضاءِ النطقِ المودعةِ في الانسانِ. إذ يقولُ في ذلك: " أظنُّ أنَّ الصوتَ سببُه القريبُ تموّجُ الهواءِ دُفعةً واحدةً، بسرعةٍ و قوّةٍ من أيّ سببٍ كانَ"[42].

وفي كلامِ ابنِ سينا المذكورِ آنفًا نلحظُ أنّه قد أحكمَ الرأيَ و أتقنَه ؛ إذ أشارَ إلى فيزيائيةِ حدوثِ الصوتِ من خلالِ تموّجِ الهواءِ و اضطرابِه، وهذا ما نهجَه الدرسُ اللسانيُّ الحديثُ تحتَ عنوان(علم الأصوات الأكوستيكي)، أو (علم الأصوات الفيزيائي)، الذي يقولُ عنه (ماريوباي) : إنّه العلمُ الذي يهتمُّ بالجانبِ الفيزيائي لحدوثِ الصوتِ، والجانبِ الفسيولوجي المتعلّقِ بالسمعِ [43]، وأنّ " ما يُسمى صوتًا هو الأثرُ الواقعُ على الأذنِ من بعضِ حركاتٍ ذبذبيةٍ للهواءِ " [44] .

أمّا حديثُ ابنُ سينا عن تشريحِ الحَنجرةِ واللسانِ، وبيانِ أقسامِهما، وطريقةِ عملِهما [45] ، ففيه إشارةٌ صريحةٌ إلى إفادةِ علمِ الأصواتِ من معطياتِ علمِ التشريحِ، وهذا ما ذهبَ إليه علم اللسانياتُ الحديثُ، الذي يرى أنَّ " هذا العلمَ في بعضِ جوانبِ دراستِه بمعلوماتٍ يستمدُّها من علومٍ أخرى، كما إنَّه يستخدمُ وسائلَ خاصّةً به، فهو في وصفِ النطقِ الانسانيّ يعوّلُ على علمِ التشريحِ " [46] .

نفهمُ ممّا سبقَ ذكرُه أنَّ جهودَ ابنِ سينا أسعفت الدرسَ اللساني الحديثَ كثيرًا في رؤاه الصوتية.

-صفات الكلام :

ذكرَ سيبويه في كتابِه بابًا بعنوانِ (هذا بابُ الاستقامةِ من الكلامِ و الإحالةِ)، قسّمَ فيه الكلامَ على أقسامٍ، يقولُ فيه : " فمنهُ مستقيمٌ حسنٌ، و محالٌ، و مستقيمٌ كذِبٌ، و مستقيمٌ قبيحٌ، و ما هو محالٌ كذِبٌ. فأمّا المستقيمُ الحسنُ، فقولُكَ : أتيتُكَ أمسِ، و سآتيكَ غدًا.

وأمّا المحالُ فأنْ تنقضَ أولَ كلامِكَ بآخرِه، فتقولَ : أتيتُكَ غدًا، و سآتيكَ أمسِ.

وأمّا المستقيمُ الكذِبُ فقولُكَ : حملتُ الجبلَ، و شربتُ ماءَ البحرِ، و نحوُه.

وأمّا المستقيمُ القبيحُ فأنْ تضعَ اللفظَ في غيرِ موضعِه، نحوُ قولِكَ: قد زيدً رأيتُ، و كي زيدٌ يأتيكَ، وأشباهُ هذا.

وأمّا المحالُ الكذِبُ فأنْ تقولَ : سوفَ أشربُ ماءَ البحرِ أمسِ " [47] .

ولو أمعنا النظرَ في صفاتِ الكلامِ التي نصَّ عليها آنفًا، لوجدناها تنقسمُ على قسمينِ:

1- قسمٌ يتعلّقُ بالشكلِ.

2- قسمٌ يتعلّقُ بالمعنى.

فالمقصودُ من الشكلِ :" هو الصورةُ اللفظيةُ المنطوقةُ أو المكتوبةُ على مستوى كلِّ جزءٍ من الأجزاءِ التحليليةِ للتعبيرِ الكلاميّ، أو على مستوى التركيبِ الكلاميّ" [48] ؛ فالمرادُ منه القواعدُ التي تنتظمُ في ضوئِها الكلماتُ، وهو يختلفُ باختلافِ اللغاتِ ؛ إذ لكلِّ لغةٍ تأليفٌ مختلفٌ عن غيرِها [49].

وبمقتضى كلامِ سيبويه ندركُ أنّه ثمّةَ كلامٌ يكونُ مطابقًا في شكلِه لقواعدِ اللغةِ، وقد أطلقَ عليه صفةَ (المستقيمِ)، وآخرُ غيرُ مطابقٍ في شكله لقواعدِ اللغةِ، و أطلقَ عليه صفةَ (قبيحًا)، " و بناءً على هذا يميّزُ النحويونَ المعاصرونَ بينَ مصطلحينِ اثنينِ:(grammatical) بمعنى مطابقٌ للقاعدةِ النحويةِ، و (non grammatical) بمعنى غيرُ مطابقٍ للقاعدةِ النحويةِ " [50] .

والمقصودُ من المعنى هو " الغرضُ أو المقصدُ،أو ما يريدُ المتكلمُ أنْ يُثبتَه أو ينفيَه من الكلامِ " [51]. وفي بعضِ الأحيانِ لا يتطابقُ المعنى مع مقتضى الحالِ، على الرغمِ من سلامةِ الكلامِ (الجملةِ) من الناحيةِ الشكليةِ(القواعديةِ)، " فالجملةُ تمثلُ بالضرورةِ تتابعًا من الوحداتِ الصرفيةِ، أو المورفيماتِ، و لكنْ ليسَ كلُّ تتابعٍ من الوحداتِ الصرفيةِ هذه يكوّنُ بالضرورةِ جملةً مفيدةً..." [52] ، فالكلامُ الذي يكونُ فيه المعنى مقبولًا وصفَه سيبويه بـ(حسنٍ)، و (مستقيمٍ).

و يمكنُنا أنْ نوضّحَ هذه الصفاتِ بالجدولِ الآتي:

الجملة	الشكل	المعنى	الوصف
أتيتُكَ أمسِ سآتيكَ غدًا	مطابق	مطابق	مستقيم حسن
أتيتُكَ غدًا سآتيكَ أمسِ	غير مطابق	غير مطابق	محال

حملتُ الجبلَ	مطابق	غير مطابق	مستقيم كذب
شربتُ ماءِ البحرِ			
قد زيدًا رأيتُ	غير مطابق	مطابق	مستقيم قبيح
كي زيدٌ يأتيكَ			
سوف أشربُ ماءَ البحرِ أمسِ	غير مطابق	غير مطابق	محال كذب

فإذا دققنا في الأمثلةَ التي وُصِفتْ بـ(مستقيمٍ حسنٍ)، وجدناها قد طابقَ شكلُها قواعدَ اللغةِ العربيةِ، و طابقَ معناها الواقعَ ويمكنُ أن يتحقّقَ، فـ " كلُّ كلامٍ تكلّمَ به متكلّمٌ، فأمكنَ أنْ يكونَ على ما قالَ، ولم يكنْ في لفظِه خللٌ من جهةِ اللغةِ و النحوِ فهو كلامٌ مستقيمٌ في الظاهرِ " [53] .

أمّا الأمثلةُ التي وصفَها سيبويه بـ(محالٍ)، فنجدُ أنَّ شكلَها غيرُ مطابقٍ لقواعدِ اللغةِ العربيةِ؛ وذلك لاشتمالِها على التناقضِ بينَ الزمنِ الصرفيّ للفعلينِ المذكورين في الجملةِ و ظرفي الزمانِ، فالفعلُ الأوّلِ (أتيتُكَ) يدلُّ على الزمنِ الماضي، و ظرفُ الزمانِ (غدًا) يدلُّ على الزمنِ المستقبلِ.

والفعلُ الثاني (سآتيكَ) يدلُ على المستقبلِ، و ظرفُ الزمانِ (أمس) المذكورُ معه يدلُّ على الزمنِ الماضي.

وهذا يعني عدمَ تحقيقِ التآلفِ بينَ القاعدةِ و المعنى و هو ما يفسّرُ إلصاقَ سيبويه بهذه الأمثلةِ تلكمَ النعوت.

أما الأمثلةُ التي وُصِفتْ بـ (مستقيمٍ كَذِبٍ)، فنجدُ أنَ شكلَها مطابقٌ لقواعدِ اللغةِ العربيةِ، إلّا أنّ معناها لا يمكنُ أن يكونَ مطابقًا للواقعِ " فكلُّ كلامٍ تُكُلِّمَ به، وكانَ مخبرُه على خلافِ ما يوجبُه الظاهرُ فهو كذِبٌ " [54] .

والأمثلةُ التي وُصِفتْ بـ (مستقيمٍ قبيحٍ) من ناحيةِ الشكلِ غير موافقةٍ لقواعدِ اللغةِ بسببِ الفصلِ بينَ متلازمين، وهما (قد) و الفعلُ، و (كي) و الفعلُ، في حين نجدُ معناهما يمكن أن يتحققّ في الواقعِ.

أمّا الأمثلةُ التي وُصِفتْ بـ (محالٍ كذبٍ) فيكونُ شكلُها غيرُ مطابقٍ لقواعدِ اللغةِ لتناقض الزمانِ بينَ الفعلِ وظرفِ الزمانِ، وكذلك لا يمكنُ لمعناها أن يتحقّقَ في الواقعِ بسببِ هذا التناقضِ.

نفهمُ من هذا أن سيبويه وعلماءَ العربيةِ لم يغفلوا جانبَ المعنى في تحليلِهم الكلامَ، فالقاعدةُ والمعنى صنوانِ لا يفترقانِ في عمليةِ التحليلِ، وأيّ تغييرٍ في نظمِ الكلماتِ في الجملةِ سيتبعُه حتمًا تغييرٌ في المعنى[55]؛ " إذ إنَّ تأليفَ الألفاظِ راجعٌ حتمًا إلى تأليفِ الدلالاتِ النحويةِ الذي يُشكّلُ صورةً واقعيةً، أو واقعًا ماديًّا لتأليفِ المعاني في النفسِ " [56] .

وكانَ تشومسكي يولي تحليلَ الجملةِ عنايةً بالجانبِ القواعديّ قبلَ التحليلِ الدلالي أو المعنوي، إلا أنّه غيّرَ من وجهةِ نظرِه –بعدّ عقدٍ من الزمنِ على نشرِ كتابِه (التراكيبِ النحويةِ) – و بدأ ينظرُ إلى أنَّ الدلالةَ لا تفترقُ عن القواعدِ [57] .

فتقسيمُ سيبويه لصفاتِ الكلامِ يدخلُ في اللسانياتِ العامّةِ، و ممكنُ أن يشملَ كلَّ اللغاتِ الإنسانيةِ و لا يقتصرُ على لغةِ العربِ وحدَها، فالكلامُ لكي يكونَ مقبولًا صحيحًا ينبغي أن يراعيَ الجانبَ القواعدي و الجانبَ الدلالي، من دونِ تفضيلِ أحدِهما على الآخرِ، و هذه الفكرةُ استرشدَ بها لسانيو العصرِ الحديثِ، إذ " رأوا أنَّ أيَّ نموذجٍ

نحويٍّ ينبغي أن لا يقتصرَ على تناولِ الجملِ الصحيحةِ البنيةَ، و إنّما ينبغي له أن يهتمَّ بصحّةِ هذه الجملةِ على الصعيدِ النحويّ و الدلاليّ (المعنوي) " [58]

-الدلالة :

من الموضوعاتِ التي رصدَها علماؤنا الأوائلِ، وأفاضوا البحثَ فيها الدلالةُ، إذ كانَ جلُّ ما قدّموه في هذا الموضوعِ يدخلُ في بابِ اللسانياتِ العامّةِ، ولم يكنْ مختصًّا بلغةِ العربِ وحدَها.

ونستحضرُ في هذا المقامِ كلامَ ابنِ سينا على الدلالةِ، إذ يقولُ : " إنَّ الإنسانَ قد أوتيَ قوةً حسيّةً ترتسمُ فيها صورُ الأمورِ الخارجيةِ، وتتأدّى عنها إلى النفسِ، فترتسمُ فيها ارتسامًا ثانيًا ثابتًا، وإن غابَ عن الحسّ،... فللأمورِ وجودٌ في الأعيانِ، ووجودٌ في النفسِ يكوّنُ آثارًا في النفسِ. ولمّا كانتْ الطبيعةُ الإنسانيةُ محتاجةً إلى المحاورةِ... مالتْ الطبيعةُ إلى استعمالِ الصوتِ، ووُفّقتْ من عند الخالقِ بآلاتِ تقطيعِ الحروفِ وتركيبِها معًا؛ ليُدلَّ بها على ما في النفسِ من أثرٍ، ثمَّ وقعَ اضطرارٌ ثانٍ إلى إعلامِ الغائبينَ من الموجودينَ في الزمانِ، أو من المستقبلينَ إعلامً بتدوينِ ما عُلِمَ... فاحتيجَ إلى ضربٍ آخرَ من الإعلامِ غيرِ النطقِ فاختُرِعتْ أشكالُ الكتابةِ"[59].

حدّدَ ابنُ سينا في هذا النصِّ ثلاثةَ أركانٍ للعمليةِ الدلاليةِ، هي [60]:

1- أمورٌ ماديةٌ حاضرةٌ، أو غائبةٌ عن الحسّ و الأفكارِ.

2- مثيراتٌ سمعيةٌ تستحضرُ صورَ الأشياءِ و معانيها.

3- رموزٌ دالّةٌ، و هي إما ألفاظٌ (أصواتٌ)، أو كتابةٌ (خطٌّ).

وأركانُ الدلالةِ هذه لا تخصُّ لغةً معيّنةً، و إنّما هي مشتركةٌ بين البشرِ جميعِهم.

وقد سمّى الدرسُ اللسانيُّ الحديثُ (الدلالةَ) بـ (الإشارةِ) [61]، وبيّنَ الجانبَ النفسيّ فيها، الذي أشارَ إليه ابنُ سينا في النصِّ المذكورِ آنفًا، إذ يقولُ دي سوسور : "الإشارةُ اللغويةُ، إذن،هي كيانٌ سايكولوجي، له جانبانِ يمكنُ التعبيرُ عنه بالرسمِ الآتي :

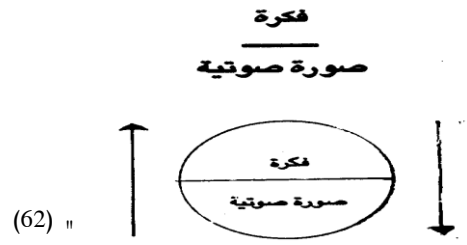

" [62]

ويقولُ جيرو : " الإشارةُ، إذن، عبارةٌ عن مهيّجٍ، يسمّيه علماءُ النفسِ منشّطًا، و يظهرُ أثرُه على الجهازِ العضويّ حينَ يُثيرُ صورةً ذهنيّةً لمنشّطٍ آخرَ " [63]

إذن ما ذكرَه ابنُ سينا من أثرِ الجانبِ النفسيّ في الدلالةِ، قد أقرَّه علماءُ اللسانياتِ المحدثونَ و استندوا إليه في تحليلِهم الدلالة، وهو ما يعانقُ مقولةَ إنَّ جهد علمائنا الأوائلِ كانَ جهدا لسانيًا عامًّا، ولا يخصُّ العربيةَ دونَ غيرِها.

أمّا أقسامُ الدّالِ، فقد ذكرَ الجاحظُ أنّه ينقسمُ على خمسةِ أقسامٍ، و في ذلك يقولُ : " وجميعُ أصنافِ الدلالاتِ على المعاني من لفظٍ و غيرِ لفظٍ، خمسةُ أشياء لا تنقصُ و لا تزيدُ : أوّلُها اللفظُ، ثمَّ الإشارةُ، ثمَّ العقدُ، ثمَّ الخطُّ، ثمَّ الحالُ التي تسمّى النصبةَ " [64] .

فالجاحظُ في هذا النصِّ تحدّثَ عن أنواعِ الدّالِ في لغاتِ البشرِ جميعِها، و لشدّةِ تأصلِ ذلك في نفسِه و إتقانِه وتوثّقِه من هذه الأقسامِ قالَ: لا تنقصُ و لا تزيدُ.

ونجدُ الدرسَ اللسانيّ الحديثَ يأتي على هذا التفصيلَ الدقيقَ لأقسامِ الدالِ، و لا يخرجُ عمّا قالَه الجاحظُ في ذلك، يقولُ جيرو : " هناكَ شكلانِ كبيرانِ و دالّانِ من أشكالِ الإشارةِ : الإشاراتُ الطبيعيةُ، والإشاراتُ الاصطناعيةُ" [65] ، ثمَّ يبدأ جيرو بالحديثِ عن هذينِ الشكلينِ، وأنواعِهما [66] ، وهي لا تبتعدُ عمّا اهتدى إليه الجاحظُ في هذا الموضعِ.

ونفهمُ ممّا سبقَ أنَّ الجاحظَ قد سجّلَ قصبَ السبقِ فيما ذكرَه من أنواعِ الدلالاتِ، وهي في مدوناتِ الدرسِ اللساني الحديثِ لا تعدو كونَها ترداداً لمقولتِه تلك.

أمّا العلاقةُ الاعتباطيةُ بين الدالِ والمدلولِ، فقد سجّلَ علماءُ العربيةِ القدماءُ التفاتاتٍ قيّمةٍ في الدرسِ اللساني العامِ فيما يخصُّ هذا الموضوعِ، إذ نرى ابنَ جني يذكرُ أنَّ الجماعةَ اللغويةَ بعدَ أن يتواضعوا على تسميةِ الأشياءِ، تكونُ فيها هذه التسمياتِ (الدال) لا تمتُّ بصلةٍ إلى المسمياتِ (المدلول)، حيثُ يقولُ :" ثمَّ لك من بعدِ ذلكَ أنْ تنقلَ هذه المواضعةَ إلى غيرِها، فتقولُ: الذي اسمُه إنسانٌ فليُجعلْ مكانَه مرْد، والذي اسمُه رأسٌ فليُجعلْ مكانَه سرْ، وعلى هذا بقيةُ الكلامِ، وكذلكَ لو بُدِئتْ اللغةُ الفارسيةُ، فوقعتْ المواضعةُ عليها، لجازَ أن تنقلَ ويولّدَ منها لغاتٌ كثيرةٌ : من الروميةِ و الزنجيةِ، وغيرِهما " [67] .

فالفكرةُ (المدلولُ) واحدةٌ عند بني البشرِ جميعا، إلّا أنّ الصورةَ الصوتيةَ (الدالَّ) تختلفُ باختلافِ الأممِ، إذ لكلِّ أمّةٍ لغتُها الخاصّةُ بها للتعبيرِ عن أفكارِها. وهذا ما نبّهَ عليه ابنُ جني في حديثِه، وأكّدَه الغزالي (505هـ) من بعدِه بقولِه : " والوجودُ في الأعيانِ و الأذهانِ لا يختلفُ بالبلادِ والأممِ، بخلافِ الألفاظِ و الكتابةِ، فإنّهما دالتانِ بالوضعِ و الاصطلاحِ " [68] .

وقد أشارَ عبدُ القاهرِ الجرجاني(471هـ) إلى هذه الاعتباطيةِ بينَ الدالِ والمدلولِ أيضًا، إذ يقولُ: " وذلكَ أنّ نظمَ الحروفِ هو تواليها في النطقِ فقط، وليسَ نظمُها بمقتضى عن معنى، ولا الناظمُ لها بمقتفٍ في ذلكَ رسمًا من العقلِ اقتضى أن يتحرّى في نظمِه لها ما تحرّاهُ، فلو أنَّ واضعَ اللغةِ كانَ قد قالَ (ربضَ) مكانَ (ضربَ) لما كانَ في ذلكَ ما يؤدّي إلى فسادٍ " [69] .

وما نصَّ عليه القدماءُ من علمائنا في هذا الموضوعِ قد سجّلَ حضورًا واضحًا في الدرسِ اللساني الحديثِ، فقد ذهبَ دي سوسور إلى " أنَّ كلمةَ الاعتباطيةِ... لا تعني أنَّ أمرَ اختيارِ الدّالِ متروكٌ للمتكلّمِ كلّيًا. حيثُ سنرى أنَّ الفردَ لا يستطيعُ أنْ يغيّرَ الإشارةَ في المجتمعِ اللغويّ ؛ بل أعني بالاعتباطيةِ أنّها لا ترتبطُ بدافعٍ؛ أي أنّها اعتباطيةٌ لأنّها ليسَ لها صلةٌ طبيعيةٌ بالمدلولِ " [70] .

وهذا المعنى لم يغبْ عن ذهنِ ابنِ جني و غيرِه من العلماءِ القدماءِ بصورةٍ واضحةٍ في كلامِهم على الاعتباطيةِ، فهي لا تعني الخروجَ عمّا تواضعَ عليه المجتمعُ (الجماعة اللغوية)، و إنّما تعني عدمَ وجودِ علاقةٍ بين الدّالِّ والمدلولِ، ولو ارتأتْ الجماعةُ اللغوية أن تضعَ (ربضَ) مكانَ (ضربَ) لجازَ ذلك.

ومن هنا نستطيعُ أن نقولَ : إنّ ما تفطّنَ إليه القدماءُ من علمائنا في هذا الموضوعِ، قد شكّلَ ركيزةً واضحةً في الدرسِ اللساني الحديثِ.

الخاتمة:

بعد هذا التجوالِ بين مرحلتين من مراحل دراسة اللغة – مرحلةِ القديمِ، ومرحلةِ اللسانياتِ الحديثةِ، وما تلمّسناهُ من أثرٍ جليٍّ لمدوناتِ علماءِ العربِ القديمةِ في اللسانيات الحديثةِ – نصلُ إلى خاتمةٍ نجملُ فيها ما عنَّ للبحثِ من أفكارٍ، وهي كالآتي:

1- هناك أثرٌ واضحٌ للفكرِ العربي في الدرسِ اللساني الحديثِ ؛ إذ أغلبُ جهودِ علماءِ العربيةِ القدماءِ نجدُها حاضرةً وبوضوحٍ في اللسانياتِ الحديثةِ.

2- لم يغفلْ علماءُ العربيةِ القدماءُ عن الجانبِ النفسي، والجانبِ الاجتماعي في تعريفِهم اللغةَ، وهذا ما أكّدَه الدرس اللساني الحديثُ، وتعودُ هذه النظرة الموحّدة إلى أن القدماءَ والمحدثينَ قد نظروا إلى اللغةِ بوصفها مزيّةً خصّ اللهُ تعالى بها الإنسانَ دون غيرِه من الكائناتِ الحيّةِ.

3- لم تخرجْ آراءُ علماءِ الدرسِ اللساني الحديثِ في نشأةِ اللغةِ عن دائرةِ رؤى القدماءِ في هذا السياقِ، لذا نجدُ الدرسَ اللساني الحديثَ لا يعدو كونَه اجترارًا لمقولاتِ القدماءِ في هذا الموضوعِ، وكما لم يُحسمْ هذا الأمرُ عندَ القدماءِ من قبلُ، كذلكَ هو الحال في الدرسِ اللساني الحديثِ.

4- كانَ المستوى الصوتي من أكثرِ المستوياتِ التي اتّضحَ فيه أثرُ القدماءِ في الدرسِ اللساني الحديثِ، ولعلّ السببَ في ذلك يعودُ إلى أنّ حيثياتِ هذا المستوى متعلقةٌ بخلقِ الإنسانِ، وخلقِ الطبيعةِ. فالجهازُ الصوتي واحدٌ عندَ بني البشرِ جميعِهم، لذلك كلُّ ما تكلّمَ فيه القدماءُ فيما يخصُّ أعضاءَ النطقِ، انتزعَه المحدثونَ وبثّوه في أبحاثِ الدرسِ اللساني الحديثِ، والفارقُ الوحيدُ بعضُ الإضافاتِ التي زادها الدرسُ اللساني الحديثُ بسببِ التطورِ الحاصلِ في المختبراتِ و التكنولوجيا الحديثةِ، التي لم تكن موجودةً من قبلُ.

5- أشارَ الجاحظُ في (البيانِ و التبيينِ) إلى قضيتينِ مهمتينِ فيما يتعلقُ بعلمِ الأصواتِ، هما : –أثرُ التوازنِ بين أعضاءِ النطقِ في انتاجِ الصوتِ

–التعويضُ العضوي في أعضاءِ النطقِ.

وهاتانِ القضيتانِ قد بحثَهما الدرسُ الصوتي الحديثُ، وتوصّلَ إليهما بوساطةِ ما هو متوفّرٌ من أجهزةٍ و مختبراتٍ متطورةٍ، في الوقتِ الذي اهتدى إليهما الجاحظُ عبرَ الملاحظةِ المباشرةِ والذوقِ العامّ.

6- لم نجد آراءَ القدماءِ الصرفيةِ حاضرةً بوضوحٍ في الدرسِ اللساني العامّ ؛ ولعلَّ باعثَ ذلك مردُّه إلى أنَّ علمَ الصرفِ أو المورفولوجيا، يتعاملُ مع شكلِ الكلمةِ، ولأنّ لكلّ لغةٍ كلماتِها الخاصةَ، سيختلفُ الشكلُ بين كلماتِ اللغاتِ الانسانيةِ، ولا نكادُ نجدَ أثرًا واضحًا لآراءِ العلماءِ في الدرسِ اللساني الحديثِ، حتى تكون آراءً موحدةً تنطبقُ على لغاتِ البشرِ جميعِها، بخلافِ مستوياتِ اللغة الأخرى التي نجدُ فيها أشياءَ مشتركةً بين لغاتِ البشرِ.

7- كانَ لآراءِ القدماءِ في المستويينِ النحوي و الدلالي أثرٌ واضحٌ في اللسانياتِ العامةِ و نظرياتِها.

الهوامش:

([1]) البيان و التبيين : 82/1 .

([2]) ينظر : البيان والتبيين: 83/1 .

([3]) اسس علم اللغة :41 .

([4]) اللغة ، فندريس : 10 .

([5]) الخصائص :34/1 .

([6]) ينظر : النصوص و الاشارات ، قراءة في فكر رولان بارت(بحث): 573 ، و الانثروبولوجيا اللغوية : 24 .

([7]) ينظر : الصاحبي في فقه اللغة : 13 و مابعدها .

([8]) ينظر : اللغة ، فندريس : 29 و ما بعدها ، و نشأة اللغة عند الانسان و الطفل : 22-34 .

([9]) ينظر : كتاب العين : 58/1 .

([10]) ينظر : الكتاب :433/4، و جمهرة اللغة :8/1 ، و الأصول في النحو :400/3 ،و سر صناعة الاعراب :46/1.

([11]) أصالة علم الاصوات عند الخليل : 51 .

([12]) ينظر : علم اللغة العام : 59 .

([13]) ينظر : علم اللغة العام : 59-60 .

([14]) ينظر : علم الأصوات : 43 ، و قضايا نقدية في الصوتيات العربية المعاصرة :13-14 .

([15]) علم الأصوات العام –أصوات اللغة العربية : 73 .

([16]) ينظر : التفكير الصوتي عند الخليل : 21 .

([17]) دروس في علم اصوات العربية : 31 .

([18]) علم الاصوات عند سيبويه ،المستشرق الالماني ارتو شاده ، محاضرة برؤية استشراقية و مراجعة حديثة : 30، أ.د.صبيح حمود التميمي، بحث في مجلة آداب الرافدين، عدد(58)، كلية الآداب /جامعة الموصل ،2010م، و ينظر: التطور النحوي:11.

([19]) أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب و نظريات علم اللغة المعاصر : 4 .

([20]) ينظر : البيان و التبيين : 70/1 .

([21]) ينظر : المصدر نفسه : 71/1 .

([22]) المصدر نفسه : 71/1 .

([23]) المصدر نفسه : 74/1 .

([24]) ينظر : علم الاصوات العام–اصوات اللغة العربية : 69 .

(*) الدرد : هو سقوط الاسنان . ينظر : لسان العرب : 240/5 ، مادة(درد) .

([25]) الاصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية و فيزيائية : 42 .

([26]) البيان و التبيين : 72/1 .

([27]) الاصوات اللغوية رؤية عضوية و نطقية و فيزيائية :41 .

([28]) البيان و التبيين : 72/1 .

([29]) المصدر نفسه : 72/1 .

([30]) وصايا و مجالس الامام جعفر الصادق (ع)(توحيد المفضل) : 31 .

([31]) الاصوات و تصحيح عيوب النطق : 121 .

([32]) سر صناعة الاعراب : 6/1 .

([33]) ينظر : الدراسات اللهجية و الصوتية عند ابن جني : 296 .

([34]) ينظر : علم اللغة العام : 59 .

([35]) ينظر : الصوتيات /برتيل مالمبرج :25 .

([36]) ينظر : الاصوات اللغوية رؤية عضوية و نطقية و فيزيائية : 36 .

([37]) ينظر : علم الاصوات ،كمال بشر :142 .

([38]) علم الاصوات، كمال بشر : 140 .

([39]) ينظر: فصول في علم اللغة العام، دي سوسور : 83 ،و علم الاصوات اللغوية –الفونتييكا: 78، واللسانيات–المجال والوظيفة و المنهج:28.

([40]) العبارة من (الشفاء) لابن سينا : 1–2 .

([41]) المدخل الى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي : 23 ، و ينظر : اللسان و الانسان –مدخل الى معرفة اللغة :24–25 .

([42]) اسباب حدوث الحروف :56 .

([43]) ينظر : دراسة الصوت اللغوي : 19–20 .

([44]) اللغة ، فندريس : 43 .

([45]) ينظر : اسباب حدوث الحروف : 64 و ما بعدها .

([46]) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي :101 .

([47]) الكتاب : 25/1–26 .

([48]) اقسام الكلام من حيث الشكل و الوظيفة :180 .

([49]) ينظر : اللغة، فندريس : 105 .

([50]) المدارس اللسانية المعاصرة :156 .

([51]) الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي : 367 ، و ينظر :النقد اللغوي عند العرب :243 .

([52]) مدخل الى علم اللغة، د.محمود فهمي حجازي " 126 .

([53]) شرح كتاب سيبويه للسيرافي : 89/2 .

([54]) شرح كتاب سيبويه للسيرافي :91/2 .

([55]) ينظر : دلائل الاعجاز : 265 .

([56]) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية و الدلالة :201.

([57]) ينظر : نظرية تشومسكي اللغوية : 160-161 .
([58]) مدخل الى علم اللغة ، د.ابراهيم خليل :209 .
([59]) العبارة من (الشفاء) لابن سينا :1-2 ، و ينظر : رسائل أخوان الصفاء و خلان الوفاء:398/1 .
([60]) ينظر : علم الدلالة العربي ، د.فايز الداية : 13 .
([61]) ينظر : علم اللغة العام، دي سوسور: 84 ،و علم الدلالة ، بالمر :37 ، و علم الدلالة ،جيرو : 27
([62])علم اللغة العام، دي سوسور: 85 .
([63]) علم الدلالة ، جيرو : 27 .
([64]) البيان و التبيين : 183/1 .
([65]) علم الدلالة ، جيرو :30 .
([66]) ينظر : المرجع نفسه : 31 .
([67]) الخصائص : 44/1-45 ، و ينظر : المزهر في علوم اللغة : 47/1 .
([68]) معيار العلم للغزالي : 75-76 .
([69]) دلائل الاعجاز : 40 .
([70]) علم اللغة العام، دي سوسور : 87-88 .

المصادر والمراجع:

1- أسباب حدوث الحروف ، للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا (370-428هـ) ، تحقيق: محمد حسان الطيان ، و يحيى مير علي ،مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، 1983م .
2- اسس علم اللغة ، ماريوباي ، ترجمة وتعليق :د.أحمد مختار عمر ،عالم الكتب ، القاهرة .
3- أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، أحمد محمد قدور، ط.2، دار الفكر، دمشق ، 1424هـ -2003م .
4- الأصوات وتصحيح عيوب النطق و الكلام ، د.مصطفى صلاح قطب ،دار الصحوة ، 2009م .
5- الأصوات اللغوية رؤية عضوية و نطقية و فيزيائية ،د.سمير شريف إستيتية ، ط.1 ، دار وائل للنشر والتوزيع ،عمان-الاردن ،2003م .
6- الأصول في النحو ،لابي بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي(316هـ)، تحقيق : د.عبد الحسين الفتلي ،ط.3 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،1417هـ - 1996م .
7- اقسام الكلام العربي من حيث الشكل و الوظيفة ، د.فاضل مصطفى الساقي ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1397هـ - 1977م .
8- الانثروبولوجيا اللغوية ، د.مها محمد فوزي معاذ ، دار المعرفة الجامعية ، مصر، 1430هـ -2009م.
9- أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب و نظريات البحث اللغوي الحديث(في مجالي مفهوم اللغة والدراسات النحوية) ،د.حسام البهنساوي ، مكتبة الثقافة الدينية ، 1414هـ -1994م.

10- البيان و التبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(255هـ)، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، ط.1، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ،1423هـ - 2003م.
11- التطور النحوي للغة العربية ، برجشتراسر، أخرجه و علق عليه د.رمضان عبد التواب ، ط.2، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1414هـ - 1994م .
12- التفكير الصوتي عند الخليل ، د.حلمي خليل ، ط.1 ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية – مصر، 1988م .
13- جمهرة اللغة ، لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري(321هـ)، دار صادر، بيروت.
14- الخصائص ،لابي الفتح عثمان بن جني (392هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار، دار الكتب المصرية.
15- دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية و الدلالة ، د.سعيد حسن بحيري ، ط.1 ،مكتبة الآداب، القاهرة ،1426هـ - 2005م .
16- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، د.حسام سعيد النعيمي، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة و الاعلام–الجمهورية العراقية ، 1980م
17- دراسة الصوت اللغوي ، د.أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1418هـ - 1997م .
18- دروس في علم أصوات العربية ، جان كانتينو ، ترجمة : صالح القرمادي، الجامعة التونسية ، مركز الدراسات و البحوث الاقتصادية و الاجتماعية ، 1966م .
19- دلائل الاعجاز (في علم المعاني) ، عبد القاهر الجرجاني (471هـ) ، منشورات مكتبة الارومية، ايران، 1398هـ - 1978م .
20- رسائل اخوان الصفاء و خلان الوفاء ، بيروت ، 1957م .
21- سر صناعة الاعراب ، لابي الفتح عثمان بن جني (392هـ) ، تحقيق : حسن هنداوي ،ط.1 ، دار القلم ، دمشق ، بيروت ،1405هـ - 1985م .
22- شرح كتاب سيبويه ، لابي سعيد السيرافي (368هـ) ، تحقيق : د.رمضان عبد التواب ، و د.محمود فهمي حجازي ، و محمد هاشم عبد الدايم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
23- الصاحبي في فقه اللغة العربية و مسائلها و سنن العرب في كلامها ، لابي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (395هـ)، تعليق : أحمد حسن بسج ، ط.1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، 1418هـ - 1997م.
24- الصوتيات ، برتيل مالمبرج ، ترجمة :محمد حلمي خليل، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، الخرطوم، 1985م.
25- الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي، د.جابر أحمد عصفور، دار الثقافة للطباعة و النشر، القاهرة ، 1974م .

26- العبارة ، من (الشفاء) ،لابن سينا ، الهيئة المصرية للكتاب ، 1970م .
27- علم الأصوات ، د.أحمد مختار عمر ، دار غريب للطباعة و النشر ، القاهرة ، 2000م .
28- علم الاصوات ،د.كمال بشر ، دار غريب ،القاهرة ، 2000م .
29- علم الأصوات العام –أصوات اللغة العربية ، بسام بركة ، مركز الانماء القومي ، لبنان .
30- علم الأصوات عند سيبويه ، المستشرق الألماني أرتور شاده ، محاضرة برؤية استشراقية و مراجعة حديثة ، أ.د.صبيح حمود التميمي ، مجلة آداب الرافدين ، عدد(58) ،2010م ،كلية الآداب جامعة الموصل .
31- علم الأصوات اللغوية (الفونيتيكا) ،د.عصام نور الدين ، ط.1 ، دار الفكر اللبناني ، بيروت، 1992م.
32- علم الدلالة ، أف.آر.بالمر ،ترجمة : مجيد الماشطة ،الجامعة المستنصرية، العراق، 1985م .
33- علم الدلالة ، بييرجيرو ، ترجمة : د.منذر عياشي ، ط.1 ، دار طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، 1988م .
34- علم الدلالة العربي ، النظرية و التطبيق دراسة تاريخية تأصيلية نقدية ، د.فايز الداية ، ط.2 ، دار الفكر بدمشق ، 1417هـ - 1996م .
35- علم اللغة العام ، دي سوسور ، ترجمة : د.يوئيل يوسف عزيز ، مراجعة: د.مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربية ، بغداد .
36- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، د.محمود السعران ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر .
37- فصول في علم اللغة العام ، ف.ديسوسير ، ترجمة :د.احمد نعيم الكراعين، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، 1985م .
38- في البحث الصوتي عند العرب، د.خليل ابراهيم العطية، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، 1983م.
39- قضايا نقدية في الصوتيات العربية المعاصرة ، رضا بيرش، رسالة ماجستير، كلية الآداب و العلوم الانسانية ، جامعة الحاج لخضر-باتنة ، الجمهورية الجزائرية ،2009م .
40- الكتاب ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(180هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط.3، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1408هـ - 1988م .
41- كتاب العين ، أبو عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي (170هـ)، تحقيق: د.مهدي المخزومي، ود.ابراهيم السامرائي ،ط.2، مؤسسة دار الهجرة، 1409م.
42- لسان العرب ،ابن منظور، ط4 ، دار صادر ، بيروت-لبنان ،2005م.

43- اللسان و الانسان –مدخل الى معرفة اللغة ،د.حسن ظاظا ، ط.2، دار القلم ، دمشق، و الدار الشامية، بيروت ، 1990م .
44- اللسانيات المجال و الوظيفة و المنهج ، د.سمير شريف استيتية ،ط.2 ، عالم الكتب الحديث، عمان الأردن.
45- اللغة ، ج.فندريس ، تعريب :عبد الحميد الدواخلي ، و محمد القصاص ، مكتبة الانجلو المصرية .
46- المدارس اللسانية المعاصرة ، د.نعمان بوقرة ، مكتبة الآداب ، القاهرة .
47- مدخل الى علم اللغة ، د.ابراهيم خليل ،ط.1 ، دار المسيرة ، عمان ، 2010م.
48- مدخل الى علم اللغة ، د.محمود فهمي حجازي ،دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة .
49- المدخل الى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي ، د.رمضان عبد التواب ، ط.2 ،مكتبة الخانجي، القاهرة ،1985م .
50- المزهر في علوم اللغة و انواعها ، للعلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (911هـ)،شرحه و علق عليه : محمد احمد جاد المولى بك ، و محمد ابو الفضل ابراهيم ، علي محمد البجاوي ، ط.3 ، مكتبة دار التراث ، القاهرة .
51- معيار العلم للإمام محمد بن محمد ابي حامد الغزالي (505هـ)، دار المعارف بمصر، 1969م .
52- نشأة اللغة عند الانسان و الطفل ، د. علي عبد الواحد وافي ، ط.1 ، دار الفكر العربي ، القاهرة، 1947م .
53- النصوص والاشارات قراءة في فكر رولان بارت، احمد ابو زيد، عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الثاني ، وزارة الاعلام في الكويت ، 1980م.
54- نظرية تشومسكي اللغوية ،جون ليونز، ترجمة: د.حلمي خليل ،ط.1، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ، مصر، 1985م.
55- النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري ،د.نعمة رحيم العزاوي، دار الحرية للطباعة، بغداد ، العراق ، 1978م .
56- و صايا و مجالس الامام جعفر الصادق(عليه السلام) توحيد المفضل، ط.1، دار المرتضى، بيروت– لبنان ، 2003م .